



تأليف:
آرثر كونان دويل

عُصْبَةُ ذوي الشَّعْر الأحمر



الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بالرسومات الأصلية

بسم الله الرحمن الرحيم



مغامرات

شيرلوك هولمز

(٣)

عُصْبَة ذوي الشعر الأحمر

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد أيلول (سبتمبر) ١٨٩١

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.





وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُويِر (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

❋ ❋ ❋



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

❋ ❋ ❋



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية وورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

❋ ❋ ❋



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطَبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

عُصْبَة ذوي الشَّعْر الأحمر

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

قمت بزيارة صديقي شيرلوك هولمز في أحد أيام الخريف من العام الماضي، فوجدته منهمكاً بالحديث مع رجل بَدين متقدم في السن متورد الوجه، وكان يغطي رأسَه شعرٌ أحمر ناريّ اللون.

وكنت على وشك الانسحاب بعد أن اعتذرت لتطفّلي حين جذبني هولمز بسرعة إلى الغرفة وأغلق الباب قائلاً بودّ: لم تكن لتحضر في موعد أكثر ملاءمة يا عزيزي واطسون.

قلت: خشيت أن تكون مشغولاً.

- وأنا بالفعل مشغول، مشغول تماماً.

- إذن يمكنني الانتظار في الغرفة المجاورة.

قال يردّ على ملاحظتي: لا حاجة لذلك على الإطلاق.

ثم وجّه حديثه إلى الرجل ذي الشعر الأحمر قائلاً: هذا السيد المحترَم -يا سيد ويلسون- هو شريكي ومساعدي في العديد من القضايا الناجحة، وليس لدي أدنى شك في أنه سيكون ذا فائدة عظمى

في قضيتك أيضاً.

نهض الرجل البدين عن كرسيه في نصف وقفة وهزّ رأسه مرحّباً وفي عينيه اللتين يطوّقهما الشحم نظرة متسائلة.

قال هولمز وهو يرجع إلى الخلف في كرسيه المريح ويضمّ أطراف أصابعه معاً كعادته عندما يكون في حالة تأمّل واستنتاج: اجلس على الأريكة يا عزيزي واطسون، فأنا أعرف أنك تشاركني في حبي لكل ما هو غريب ومخالف لعادات ورتابة روتين الحياة اليومية، وقد أظهرت شغفك بهذا كله عن طريق الحماسة التي حثّتك على تسجيل... أو اسمح لي بأن أقول: زخرفة الكثير من مغامراتي.

قلت: قضاياك تثير اهتمامي بشكل كبير.

- أتذكّر أنني أشرت مباشرة قبل أن نبدأ العمل في القضيّة التي قدّمتها الآنسة ماري سَذرْلاند إلى أننا ينبغي أن نلجأ إلى البحث في الحياة نفسها لكي نفهم الوقائع الغريبة والأحداث المركّبة الاستثنائية، حيث سنجد دائماً ما هو أكثر جرأة من أي محاولة من محاولات الخيال؛ سنجد في الحياة نفسها من الوقائع الغريبة والأحداث المركّبة الاستثنائية ما يتفوق على أكثر محاولات الخيال جرأة.

- وهو الأمر الذي منحت نفسي حرّية الاعتراض عليه.

- نعم، لقد فعلتَ يا دكتور. وبالرغم من ذلك يجب عليك أن تقتنع برؤيتي، وإلا فسوف أظلّ أضع أمامك الحقيقة تلو الأخرى حتى يتراجع منطقك أمام تلك الحقائق وتعترف بأنني على حقّ. حسناً، لقد تكرّم السيد جابز ويلسون بزيارتي هذا الصباح ليقصّ عليّ حكاية تنبئ بأنها واحدة من أغرب القضايا التي استمعت إليها منذ مدّة، ولا بدّ أنك قد سمعتني أعلّق على أن أغرب الأشياء وأكثرها تفرّداً غالباً ما يرتبط بالجرائم الكبيرة، وفي بعض الأحيان نجدها حيث قد نشكّ في وجود جرائم فعلية قد ارتُكبت، ولا يمكنني أن أقرّر حتى الآن مما سمعته عن القضية الحالية ما إذا كانت قد تمثّل جريمة أو لا، ولكن من المؤكَّد أن مجرى الأحداث من أغرب ما سمعته على الإطلاق.

ثم التفت إلى ضيفه قائلاً: قد تتكرم بإعادة سرد قصتك مرة أخرى يا سيد ويلسون، وأنا أطلب منك ذلك ليس لمجرّد أن صديقي الدكتور واطسون لم يسمع بداية القصة، ولكن لأن الطبيعة الغريبة للقصة تجعلني متلهفاً لكل التفصيلات التي يمكن أن أسمعها من شفتيك، فأنا في العادة أسترشد بآلاف القضايا المماثلة التي تخطر على بالي عندما أسمع بعض

الإشارات البسيطة لسير الأحداث، وإن كنت مضطرّاً في المثال الموجود حالياً إلى أن أعترف أن الوقائع -على ما أعتقد- فريدة من نوعها.

نفخ عميلنا الجليل صدره مُظهِراً بعض الكبرياء وسحب جريدة متّسخة مجعَّدة من الجيب الداخلي لمعطفه الثقيل، وبينما هو ينظر إلى عمود الإعلانات والصحيفة مبسوطة على ركبته أخذتُ أتفحّصه، وسعيت -مستخدماً طريقة رفيقي- إلى قراءة الإشارات التي قد تظهر من مظهره أو ملبسه.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

لكني لم أحصل على الكثير من المعلومات بتفحّصي للزائر. إنه يحمل كل ما يدلّ على أنه تاجر إنكليزي عاديّ، فهو سمين ومتفاخر ومملّ ويرتدي بنطالاً واسعاً من القماش الصوفي ذي المربّعات الرمادية والبيضاء، وسترة سوداء تصل إلى الركبة غير مزرَّرة من الأمام، وصدرية قاتمة مزيَّنة بسلسلة نحاسية ثقيلة تتدلى كحلية، وتعلو رأسه قبّعة رسمية بالية، وكان على الكرسي المجاور معطف ذو لون بني باهت وياقة مخملية مجعّدة. ومهما حاولت فلم ألحظ شيئاً يميّز الرجل فيما عدا لون شعره الأحمر المتوهج وتعبير الانزعاج وعدم الرضا المرتسم على وجهه.

استطاع هولمز بحدّة ملاحظته أن يفهم ما يشغلني، فهزّ رأسه مبتسماً حين لاحظ نظراتي المتسائلة وقال: أنا لم أستطع أن أستنتج شيئاً -يا صديقي- سوى الحقائق الواضحة التي تُظهر أن السيد جابز قد عمل لبعض الوقت في الأعمال اليدوية، وأنه كان في الصين، وقد قام بالكثير من الكتابة مؤخَّراً.

قفز السيد جابز ويلسون في كرسيه وسبّابته على الصحيفة في حين كانت عيناه على رفيقي وهتف قائلاً: يا إلهي! كيف عرفت كل ذلك يا سيد هولمز؟! مثلاً كيف عرفت أنني كنت أقوم بعمل يدوي؟ إن ما قلته صحيح تماماً، فقد بدأت العمل نجّاراً للسفن.

- يداك يا سيدي العزيز... إن يدك اليمنى أكبر من يدك اليسرى، فقد كنت تعمل بها فنمَت عضلاتها بشكل أكبر.

- حسناً، وماذا عن الكتابة؟

- لقد بلي طرف الكمّ الأيمن جداً لمسافة خمس بوصات عند المعصم، والأيسر فيه رقعة ملساء بالقرب من الكوع في المكان الذي تستند به إلى المكتب.

- حسناً، والصين؟

- شكل السمكة الذي وشمته فوق معصمك الأيمن مباشرة لا يمكن عمله إلا في الصين، فقد قمت بدراسة بسيطة لأشكال الوشم، بل ساهمت بالكتابة في الموضوع، وهذه المهارة في صبغ حراشف الأسماك باللون الوردي تميز الصين، وبالإضافة إلى ذلك فعندما رأيت عملة صينية معلقة في سلسلة الساعة أصبح الأمر أكثر سهولة.

ضحك السيد جابز ويلسون بحرارة فقال: حسناً، لم أتخيّل هذا قط! لقد اعتقدت في البداية أنك قمت بعمل ماهر، ولكني أرى الآن أن الأمر كان بسيطاً.

قال هولمز: أظن يا واطسون أن من الخطأ أن

أقوم بالشرح، فالجهل بالشيء يجعله أكثر روعة كما تعرف، وسوف تضيع سمعتي المتواضعة إذا التزمت الصراحة. ألا تستطيع العثور على الإعلان يا سيد ويلسون؟

أجابه وإصبعه السمين الأحمر مثبَّت على منتصف أحد الأعمدة في الصحيفة: بلى، لقد وجدته الآن. ها هو، كان هذا هو بداية كل شيء... اقرأه بنفسك يا سيدي.

أخذت الصحيفة منه وقرأت ما يلي:

تعلن «جماعة ذوي الشعر الأحمر» أنه -بناء على وصية الراحل إزيكيا هوبكنز من بنسلفانيا بالولايات المتحدة- يوجد الآن موقع عمل شاغر براتب قدره أربعة جنيهات أسبوعيّاً مقابل خدمات بسيطة. أي رجل ذي شعر أحمر يتمتع بسلامة الجسم والعقل ويزيد عمره عن واحد وعشرين عاماً مؤهَّل لهذه الوظيفة، وعليه التقدّم بالطلب شخصياً إلى دنكان روس في مقر الجماعة بالمبنى رقم ٧ في شارع المحكمة المتفرع من شارع فليت، في الساعة الحادية عشرة من يوم الإثنين.

صحت قائلاً بعد أن قرأت الإعلان الغريب مرتين: ما معنى هذا؟!

قهقه هولمز وتململ في كرسيّه كعادته عندما تكون معنوياته مرتفعة وقال: الأمر خارج عن المألوف، أليس كذلك؟ والآن يا سيد ويلسون، اترك هذا الأمر وعُدْ إلى البداية لتخبرنا بكل شيء عنك وعن الأفراد المقيمين في منزلك وعن تأثير هذا الإعلان على ثروتك. أرجو -يا دكتور واطسون- أن تسجل أولاً ملاحظة عن الصحيفة وتاريخها.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- إنها صحيفة «كرونكل» الصباحية، وتاريخها هو السابع والعشرون من نيسان (أبريل) عام ١٨٩٠، أي منذ شهرين.

- جيّد جدّاً، والآن تفضّل يا سيد ويلسون.

قال السيد جابز ويلسون وهو يمسح جبينه: حسناً، الأمر كما كنت أقول لك تماماً يا سيد هولمز؛ أنا أعمل سمسارَ رهونات وأملك مكتباً صغيراً في ميدان كوبورغ بالقرب من المدينة. إنه ليس عملاً تجارياً واسعاً، كما أنه لم يدرّ عليّ في الأعوام الأخيرة إلا ما يكفي لمعيشتي، وقد كنت معتاداً على توظيف مساعدَين، أمّا الآن فأنا غير قادر إلا على إبقاء واحد فقط، ولولا أنه موافق على تقاضي نصف الأجر حتى يتعلم المهنة لكنت واجهت مشقّة في دفع أجره.

سأل هولمز قائلاً: ما اسم هذا الشابّ الخَدوم؟

- اسمه فِنْسنت سبولدِنْغ، وهو ليس شابّاً صغيراً أيضاً ومن الصعب تخمين سنّه، كما أنني لم أكُن أتمنّى مساعداً أكثر منه ذكاء يا سيد هولمز، وأنا أعرف تماماً أن بإمكانه أن يحصل على فرصة أفضل، وعندها سيكسب ضعف المبلغ الذي أستطيع منحه إياه. ولكنه راضٍ رغم كل شيء، فلماذا أشجّعه على شيء آخر؟

- نعم، صحيح، لماذا؟ يبدو أنك محظوظ جداً لتحظى بموظف يرضى بالعمل بأجر أقلّ من الأجر المتعارَف عليه، فهذا ليس أمراً شائعاً بين أرباب العمل في هذا العصر، وأعتقد أن مساعدك جدير بالملاحظة كإعلانك تماماً.

قال السيد ويلسون: آه، إن له عيوبه أيضاً؛ فلم أرَ شخصاً في مثل حماسته للتصوير الضوئي، حتى إنه يضيع وقته في التقاط الصور في الوقت الذي يجب عليه أن يعمل فيه على تحسين تفكيره، وبعد ذلك يختفي في القبو بالأسفل لتحميض الصور كالأرنب في جحره! هذا عيبه الرئيسي، ولكنه -إجمالاً- عامل جيّد ولا تشوبه شائبة.

- هل أفترض أنه ما يزال يعمل معك؟

أجاب الرجل: نعم يا سيدي، بالإضافة إلى فتاة صغيرة في نحو الرابعة عشرة من العمر تقوم ببعض الطبخ البسيط وتُبقي المكان نظيفاً، وهما الوحيدان الموجودان في منزلي، حيث إنني أرمل ولم أحظَ بعائلة قط. ثلاثتنا نعيش بشكل هادئ جداً حيث نحافظ على وجود سقف فوق رؤوسنا وندفع ديوننا، وهذا كافٍ حتى لو لم نفعل أي شيء آخر.

لقد كان هذا الإعلان هو أول ما أزعجنا، حيث

جاء مساعدي إلى المكتب في مثل هذا اليوم منذ ثمانية أسابيع وفي يده هذه الصحيفة نفسها وقال: كم كنت أتمنّى لو كان شعري أحمر اللون يا سيد ويلسون!

سألته: لماذا؟

قال: لماذا؟ ها هي وظيفة أخرى شاغرة مع جماعة ذوي الشعر الأحمر، وهذا يعني ثروة صغيرة لمن يحظى بتلك الوظيفة. وقد عرفت أن الوظائف



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

الشاغرة أكثر من الأشخاص المناسبين، ولذلك فإن الأوصياء على الثروة لا يعرفون ماذا يفعلون بالمال! لو أن لون شعري يتحول إلى الأحمر لكانت أمامي وظيفة لطيفة جاهزة تماماً لألتحق بها.

سألته قائلاً: لماذا؟ ما الأمر إذن؟

حيث إنني -يا سيد هولمز- رجل محب للزوم البيت، بالإضافة إلى أن عملي يأتي إليّ بدلاً من اضطراري إلى الخروج إليه، فقد تمرّ الأسابيع دون أن أطأ عتبة البيت، ولذلك فأنا لا أعرف الكثير عما يجري في الخارج وأسعد دائماً بأي خبر.

سألني بدهشة: ألم تسمع قط بجماعة ذوي الشعر الأحمر؟

قلت: مطلقاً.

قال: هذا أمر مثير للعجب، ومع ذلك فأنت مؤهَّل لإحدى الوظائف الشاغرة.

سألته قائلاً: وكم يدفعون؟

- مئتي جنيه، ولكن العمل لا يتعارض كثيراً مع أشغال المرء الأخرى.

حسناً، يمكنك بسهولة أن تتخيل كيف أن هذا

الأمر قد جذب انتباهي، فعملي لم يكُن يسير بشكل جيد جداً لعدة سنوات، وسوف يكون هذا المبلغ مفيداً جداً. قلت: أخبرني عن الأمر إذن.

قال: حسناً.

ثم عرض عليّ الإعلان وقال: يمكنك أن ترى بنفسك أن لدى الجماعة وظيفة شاغرة، وها هو العنوان حيث يمكنك تقديم بياناتك. وحسبما أعرف فقد أسّست هذه الجماعة على يد المليونير الأمريكي إزيكيا هوبكنز الذي كان يتميز بالغرابة في سلوكه، كما أنه كان أحمر الشعر، ولذلك تعاطف مع كل ذوي الشعر الأحمر من الرجال، فعندما مات اكتشفوا أنه قد ترك ثروته الهائلة في عهدة أوصياء عليها، وكانت تعليماته أن يخصَّص العائد لتوفير عمل سهل للرجال من ذوي الشعر الأحمر، وهكذا فالأجر رائع والعمل بسيط.

سألته: ولكن سيكون هناك الملايين من ذوي الشعر الأحمر الذين سوف يقدّمون أوراقهم.

أجاب قائلاً: ليس بالعدد الكبير الذي تتصوره، فالأمر مقتصر على الرجال الكبار من أهل لندن خاصة، فقد بدأ هذا الأمريكي حياته من لندن عندما كان شاباً فأراد أن يردّ الجميل إلى المدينة القديمة، بالإضافة

إلى أنني سمعت بعدم فائدة التقديم إذا كان لون الشعر أحمر فاتحاً أو داكناً، بل يجب أن يكون لونه أحمر زاهياً متوهّجاً. إذا تقدّمت إلى الوظيفة يا سيد ويلسون فسوف تُقبَل بسهولة، ولكن ربما لا يستحق الأمر أن تبذل جهدك وتغيّر عاداتك لتحصل على مجرّد بضع مئات من الدولارات.

والحقيقة -يا سيد هولمز- أن شعري ذو لون صارخ كما ترى، ولذلك بدا لي أنه لو كان على هذا الأمر أي تنافس فإن فرصتي أفضل من أي شخص قابلته، وبما أن سبولدنغ كان يعرف الكثير عن الموضوع فقد فكّرت في أنه قد يكون مفيداً، فأمرته بأن يغلق المكتب ويأتي معي، وقد كان سعيداً بأن يأخذ استراحة من العمل... وهكذا أغلقنا أبواب العمل واتجهنا إلى العنوان المكتوب بالإعلان.

كان المنظر الذي رأيته منظراً لا أتمنّى رؤيته مرة ثانية في حياتي، فقد تدفّق كل من يميل لون شعره إلى الاحمرار من كل صوب وحدب إلى المدينة ليجيبوا على الإعلان، واختنق شارع فليت بأناس من ذوي الشعر الأحمر حتى بدا كعربة الخضري المملوءة بالبرتقال! لم أكن أعتقد بوجود مثل هذا العدد الكبير من ذوي الشعر الأحمر في البلاد كلها لولا أنهم قد اجتمعوا كلهم بسبب هذا الإعلان الوحيد! كان هناك

كل درجات اللون من الأصفر في لون التبن والأصفر الليموني والبرتقالي والأحمر في لون شعر كلب الصيد الأيرلندي والبني المائل إلى الحمرة والبني في لون الصلصال... ولكن -كما قال سبولدنغ- لم يكن هناك الكثير من ذوي الشعر الأحمر الزاهي المشتعل.

عندما رأيت الأعداد التي تنتظر انتابني اليأس وكدت أستسلم، لولا أن سبولدنغ لم يسمح لي بذلك، ولا أستطيع حتى الآن أن أتخيّل كيف استطاع أن يمرّ بي عبر الزحام حيث أخذ يدفع الناس ويشدّهم ويتناطح معهم حتى وصلنا إلى الدرَج الذي يقود إلى المكتب حيث كانت مجموعتان من الناس، فالبعض يصعد يحدوه الأمل، والبعض ينزل عائداً في كآبة. وأخذنا نشقّ طريقنا قدر استطاعتنا حتى وجدنا أنفسنا سريعاً في المكتب.

علّق هولمز عندما صمت عميلنا لينعش ذاكرته: كانت تجربتك مسلّية للغاية، أرجو أن تكمل روايتك المثيرة للاهتمام.

أكمل عميلنا قائلاً: لم يكُن في المكتب شيء إلا كرسيان خشبيّان وطاولة جلس خلفها رجل ضئيل له شعر أكثر احمراراً من شعري! قال الرجل بضع كلمات لكل مرشّح كان يصعد، وقد تمكّن دائماً من العثور على بعض العيوب التي تقضي بعدم أهلية كل

منهم، وقد بدا وكأن الحصول على الوظيفة الشاغرة ليس بالأمر السهل رغم كل شيء. على أية حال، فعندما جاء دورنا عاملني الرجل الضئيل بطريقة أفضل من تعامله مع أي من الآخرين، وأغلق الباب حين دخلنا ليكلمنا على انفراد.

قال مساعدي: هذا هو السيد جابز ويلسون، وهو يرغب في الحصول على الوظيفة الشاغرة في الجماعة.

أجاب الآخر: وهو مناسب لذلك تماماً، فهو يمتلك كل المتطلبات، حتى إنني لا أذكر متى رأيت شيئاً بمثل هذا النقاء!

ثم تراجع خطوة إلى الخلف وراح يحدّق إليّ حتى شعرت بالخجل، وفجأة مال إلى الأمام وشدّ على يدي بحرارة وهو يهنئني بنجاحي! قال: سيكون من المجحف أن أتردّد، كما أنني متأكد من أنك ستعذرني على أية حال لاتخاذ إجراء احتياطي واضح.

قال هذا وأمسك شعري بكلتا يديه وشدّه حتى صرخت من الألم! ثم قال وهو يتركه: في عينيك دموع. أدرك الآن أن كل شيء كما ينبغي أن يكون، ولكن يجب علينا أن نحترس حيث خُدعنا من قبل

مرتين بشعر مستعار ومرة بصبغ الشعر! يمكنني إخبارك قصصاً ستجعلك تشعر بالاشمئزاز من الطبيعة البشرية.

ثم ذهبَ إلى النافذة وصرخ منها قائلاً بأعلى صوته: لقد شُغِلت الوظيفة الشاغرة.

فسمعنا أنيناً محبَطاً صادراً من أسفل، وبدأ الناس يتحركون في كل اتجاه مبتعدين حتى لم نرَ أحداً



Sydney Paget 1891 رسم سدني باجيت ١٨٩١

بشعر أحمر ما عداي أنا والمدير.

قال: أسمي هو دنكان روس، وأنا نفسي أحد المستفيدين من المنحة التي تركها محسننا الكريم. هل أنت متزوج يا سيد ويلسون؟ ألديك عائلة؟

أجبته بالنفي، فتغير وجهه على الفور وقال باكتئاب: يا إلهي، هذا خطير جداً بالفعل! أنا آسف لسماع ذلك، فالتمويل هو بالطبع لزيادة أعداد ذوي الشعر الأحمر وتكاثرهم. من سوء الحظ جداً أن تكون عزَباً.

ارتسمت ملامح الكآبة على وجهي عند سماعي ذلك يا سيد هولمز، حيث اعتقدت أنني غير مؤهَّل لتلك الوظيفة، ولكنه قال بعد أن فكّر في الأمر لعدّة دقائق: سيكون كل شيء على ما يرام. لو أن الأمر يخصّ شخصاً آخر لكان الاعتراض محتوماً، ولكن يجب أن نتمتع ببعض المرونة في سبيل مصلحة شخص له مثل شعرك. متى ستتمكن من أداء مهامّك الجديدة؟

قلت: في الأمر بعض الصعوبة حيث إن لديّ عملاً آخر بالفعل.

قال فنسنت سبولدنغ: لا تهتمّ بهذا الأمر يا سيد ويلسون، بإمكاني الاعتناء بأمور العمل من أجلك.

فسألت قائلاً: ما ساعات العمل؟

- من العاشرة إلى الثانية.

غالباً ما يكون عمل سمسار الرهانات في المساء يا سيد هولمز، ولا سيما مساء يومَي الخميس والجمعة، أي قبل يوم القبض مباشرة. ولذلك بدا من المناسب لي تماماً أن أكسب القليل من المال في الصباح، فأنا أعلم أن مساعدي رجل صالح وأنه يستطيع معالجة أي طارئ في العمل.

قلت: هذا يناسبني جداً. وماذا عن الراتب؟

- أربعة جنيهات في الأسبوع.

- والعمل؟

- عمل بسيط للغاية.

- وما العمل الذي تدعوه بسيطاً للغاية؟

- حسناً، يجب أن تبقى في المكتب، أو على الأقلّ في المبنى، الوقت كله. أمّا إذا خرجت فسوف تخسر وظيفتك إلى الأبد، فالوصيّة واضحة جداً فيما يتعلق بهذا الأمر، وهكذا فإن خرجت من المكتب خلال هذا الوقت تكون قد خالفت الشروط.

قلت: لن أفكر في المغادرة، فالأمر يقتصر على

أربع ساعات بالنهار.

قال السيد دونكان روس: والأعذار غير مقبولة، لا المرض ولا العمل أو أي شيء آخر، فيجب أن تظلّ هناك وإلا فقدت وظيفتك.

- وما طبيعة العمل؟

- عليك أن تنسخ الموسوعة البريطانية، وسوف تجد المجلّد الأول منها في تلك الخزانة. عليك إحضار الحبر والأقلام والأوراق النشّافة، ولكن بإمكاننا توفير هذه الطاولة لك بالإضافة إلى كرسي. هل ستكون مستعداً غداً؟

أجبت قائلاً: بالتأكيد.

- إلى اللقاء إذن يا سيد ويلسون، واسمح لي بأن أهنّئك مرة أخرى على المركز المهم الذي حالفك الحظ لتشغله.

ثم انحنى لي، فخرجت من الغرفة وذهبت إلى المنزل مع مساعدي وقد تملّكتني السعادة بسبب حسن حظي حتى أصبحت لا أعرف ماذا أقول أو أفعل!

فكّرت في الأمر طوال النهار، وبحلول المساء كانت معنوياتي قد انخفضت ثانية حيث كنت قد أقنعت نفسي بأن الأمر لا يعدو أن يكون خدعة أو

احتيالاً، بالرغم من أنني لم أستطع تحديد الهدف منه. فقد بدا من غير المعقول أن يقوم شخص ما بكتابة مثل هذه الوصيّة أو بدفع مثل هذا المبلغ لقاء عمل في بساطة نسخ الموسوعة. وقد بذل سبولدنغ جهده ليبهجني، ولكن بحلول وقت النوم كنت قد أقنعت نفسي بأن الأمر كله لا أساس له، وإن كنت قد قرّرت في الصباح أن ألقي نظرة على الأمر على أية حال، فاشتريت زجاجة من الحبر وقلماً وكمية من الأوراق الكبيرة ثم اتجهت إلى المكتب.

حسناً، لدهشتي وسعادتي كان كل شيء كما ينبغي أن يكون، وقد أعِدّت الطاولة من أجلي، وكان السيد دونكان روس هناك ليتأكد من وصولي إلى العمل في الوقت المحدَّد. وقد ساعدني حتى بدأت في العمل ثم تركني، ولكنه كان يحضر من وقت إلى آخر ليتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام. وفي الساعة الثانية تمنّى لي يوماً سعيداً وأثنى على القدر الكبير الذي نسخته من الموسوعة، ثم أغلق باب المكتب بعد خروجي.

استمرّ الأمر على هذا المنوال يوماً بعد يوم يا سيد هولمز، وفي يوم السبت جاء المدير ودفع لي أربعة جنيهات ذهبية لقاء عمل الأسبوع. ثم تكرّر الأمر نفسه في الأسبوع التالي، ثم في الأسبوع الذي تلاه...

كنت أذهب إلى هناك في العاشرة صباحاً وأنصرف في الثانية من بعد الظهر، وبالتدريج اعتاد السيد دونكان المجيء مرّة واحدة في الصباح، ثم بعد فترة توقّف عن المجيء كلياً، وبالرغم من ذلك فلم أجرؤ بالطبع على مغادرة الغرفة ولو للحظة خوفاً من قدومه؛ فقد كانت الوظيفة جيّدة ومناسبة لي جداً، ولذلك لم أرغب في أن أخاطر وأخسرها.

مرّت أسابيع ثمانية بالنظام ذاته، وكلّفني ذلك الكثير من الورق الكبير وملأت بكتاباتي ما يقارب الرّف... ثم فجأة انتهى الأمر كله!

- انتهى؟!

- نعم يا سيدي، وقد حدث الأمر هذا الصباح حين ذهبت إلى عملي في العاشرة صباحاً كالمعتاد، ولكن كان الباب مغلَقاً وهناك قطعة مربّعة صغيرة من الورق المقوّى الأبيض مثبَّتة بمسمار في وسط إطار الباب. ها هي، يمكنك قراءتها بنفسك.

رفع قطعة من الورق المقوّى الأبيض في حجم ورقة المفكّرة، وكان المكتوب فيها كالتالي: «حُلَّت جماعة ذوي الشعر الأحمر في التاسع من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٩٠».

فحصت أنا وشيرلوك هولمز هذا الإعلان

المقتضَب والوجه الحزين للرجل، حتى تغلّب الجانب الهزلي للموقف تماماً على أية اعتبارات أخرى فانفجرنا في عاصفة من الضحك. صاح عميلنا وقد احتقن وجهه حتى جذور شعره المتوهج: لا أرى في الأمر ما يدعو إلى الضحك! إذا لم يكن بإمكانكما



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

عمل شيء عدا السخرية منّي فيمكنني أن أذهب إلى مكان آخر.

صاح هولمز وهو يعيده إلى الكرسي الذي همّ بالقيام عنه قائلاً: لا، لا، أنا حقاً لا أريد أن أفوّت قضيتك مهما كان الثمن، فهي غريبة بشكل منعش. ولكن اعذرني إن قلت لك إن فيها بعض الطرافة. أرجوك قل لي: ما هي الخطوات التي قمت بها بعدما اكتشفت البطاقة على الباب؟

قال: لقد صُدمت يا سيدي ولم أعرف ماذا أفعل، ثم قمت بزيارة المكاتب المجاورة، ولكن لم يَبدُ أن أياً منهم يعرف أي شيء عن الأمر. وأخيراً ذهبت إلى صاحب المبنى، وهو محاسب يعيش في الطابق الأرضي، وسألته عما إذا كان يستطيع إخباري بما حلّ بجماعة ذوي الشعر الأحمر، فقال إنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل! وعندها سألته عمّن يكون السيد دونكان روس فأجابني بأن هذا الاسم جديد عليه!

قلت: حسناً، ماذا عن السيد في المكتب رقم أربعة؟

- من؟ الرجل ذو الشعر الأحمر؟

- نعم.

قال: آه، اسمه ويليم موريس، وهو محام كان يستأجر إحدى الغرف عندي كاستراحة مؤقّتة حتى يجهز مبناه الجديد، وقد انتقل أمس.

- أين يمكنني أن أجده؟

- في مكتبه الجديد، لقد أخبرني بالعنوان. ١٧ شارع الملك إدوارد بالقرب من كنيسة سينت بول.

انطلقت يا سيد هولمز، ولكن عندما وصلت إلى ذلك العنوان وجدت أنه مصنع للركب الصناعية، ولم أجد هناك من سمع بالسيد ويليم موريس أو السيد دونكان روس!

سأل هولمز قائلاً: وماذا فعلت عندها؟

- ذهبت إلى منزلي بميدان كوبورغ وسألت مساعدي النصيحة، ولكنه لم يساعدني بأية طريقة ولم يستطع إلاّ أن يقول لي إنني لو انتظرت فسوف أسمع أخباراً عن الأمر بالبريد. ولكن هذا الاقتراح لم يكن جيداً بما فيه الكفاية يا سيد هولمز، فلم أرغب بأن أخسر مثل تلك الوظيفة دون مقاومة، ولذلك جئت إليك مباشرة لأنني سمعت أنك تتكرم بإسداء النصيحة إلى مَن يحتاجها من الفقراء.

قال هولمز: وقد تصرفتَ بحكمة شديدة،

فقضيتك مميَّزة جداً وسأكون سعيداً بالبحث فيها، واستنتاجاً مما أخبرتني أعتقد أن من الممكن أنها تتعلق بأمور أكثر خطورة مما يظهر للوهلة الأولى.

قال السيد جابز ويلسون: الأمر خطير بما فيه الكفاية، فقد فقدت أربعة جنيهات في الأسبوع.

علّق هولمز قائلاً: أمّا فيما يتعلق بك شخصياً فلا أرى أنك تملك أساساً لأي شكوى ضدّ هذه الجماعة غير العادية، بل على العكس فقد أصبحتَ أغنى بمقدار ثلاثين جنيهاً كما فهمت، هذا إذا لم نأخذ في الاعتبار المعلومات الدقيقة التي اكتسبتَها من كل الموضوعات التي نسختها... وهكذا فأنت لم تخسر شيئاً بسببهم.

- نعم سيدي، ولكنني أريد أن أكتشف المزيد عن هذه الجماعة وأعرف من هم أصحابها وماذا كان هدفهم من هذه المزحة... لو كانت مزحة، فقد كانت مزحة مكلّفة جداً بالنسبة إليهم إذ كلّفتهم اثنين وثلاثين جنيهاً.

- سنسعى إلى توضيح هذه النقاط من أجلك، ولكني سأسألك أولاً بعض الأسئلة يا سيد ويلسون: منذ متى يعمل معك ذلك المساعد الذي لفت انتباهك إلى الإعلان في البداية؟

- شهر في ذلك الوقت.

- وكيف جاء إليك؟

- رداً على أحد الإعلانات.

- هل كان المتقدمَ الوحيد؟

- لا، لقد تقدّم لي عدد من الناس.

- ولماذا اخترته من بينهم؟

- لأنه كان بارعاً، كما أنه يعمل بأجر زهيد.

- بل بنصف الأجر في الحقيقة.

- أجل.

- ما شكله، هذا المدعو فنسنت سبولدنغ؟

- ضئيل حليق الوجه قوي البنية حركاته سريعة جداً، وعمره لا يقل عن الثلاثين، وعلى جبهته بعض الآثار البيضاء من أثر حرق قديم.

استقام هولمز في جلسته في انفعال واضح وقال: هذا ما ظننته. وهل لاحظت أن أذنيه مثقوبتان؟

- نعم يا سيدي، وقد قال لي إن أحد الغجر قد ثقبهما له وهو صبي.

قال هولمز وهو يغرق ثانية في صمت عميق: هل ما زال يعمل عندك؟

- نعم يا سيدي، فقد تركته للتو.

- وهل كان عملك يسير بشكل جيد في أثناء غيابك؟

- ليس فيه ما يدعو إلى الشكوى، فالعمل أصلاً خفيف جداً في فترة الصباح.

- يكفي هذا يا سيد ويلسون، وسأكون سعيداً بإعطائك رأياً بخصوص الموضوع خلال يوم أو اثنين. اليوم هو السبت، وأتمنى أن نصل إلى نتيجة بحلول يوم الإثنين.

* * *

قال هولمز عند انصراف الضيف: حسناً يا واطسون، ما الذي استنتجته من كل ما سمعت؟

أجبته بصراحة: لم أستنتج شيئاً؛ الأمر في غاية الغموض.

قال هولمز: القاعدة تشير إلى أن أكثر الأشياء غرابة يثبت فيما بعد أنها أقلّها غموضاً، وأن القضايا العادية غير المميزة هي الأكثر إثارة للحيرة في الحقيقة،

تماماً كما يصعب تمييز الوجه ذي الملامح العادية. حسناً، عليّ الآن أن أسرع في حل هذه القضية.

سألته قائلاً: ما الذي ستفعله إذن؟

أجاب: الغليون أولاً، فهذه القضيّة تستوجب تدخين الغليون ثلاث مرات، وأرجو منك أن لا تتحدث إليّ لمدة خمسين دقيقة.

تكوّر هولمز في كرسيّه وركبتاه النحيلتان مسحوبتان حتى أنفه المعقوف، وقد جلس مغلَق



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

العينين وغليونه الأسود بارز إلى الخارج كمنقار طائر غريب، وحين ظننت أنه قد نعس (وبدأ رأسي يميل في الحقيقة من النعاس) هبّ واقفاً فجأة من كرسيه في إشارة تدل على أن رأيه قد استقرّ على شيء، ثم وضع الغليون على رفّ المدفأة والتفت إليّ قائلاً: سيعزف ساراسيت في قاعة سينت جيمس بعد ظهر هذا اليوم، فماذا تعتقد يا واطسون؟ أيمكن لمرضاك أن يتركوك لعدة ساعات؟

- ليس لديّ ما أفعله اليوم، فعيادتي لا تستغرق أبداً الكثير من وقتي.

- فلترتدِ إذن قبعتك وتأتِ معي، فأنا سأذهب إلى وسط المدينة أولاً، ويمكننا أن نتناول الغداء في الطريق. ألاحظ وجود الكثير من الموسيقى الألمانية في البرنامج، وهي تلائم ذوقي أكثر من الموسيقى الإيطالية أو الفرنسية، فالموسيقى الألمانية تدفع المرء إلى فحص أفكاره ودوافعه، وهذا ما أريد أن أفعله. هيّا بنا.

ركبنا بمترو الأنفاق حتى وصلنا إلى آلدرَسْغيت، ثم قطعنا مسافة قصيرة على الأقدام إلى ميدان كوبورغ، وهو مسرح الأحداث التي استمعنا إليها هذا الصباح. وهو مكان ضيّق صغير وتقليد رديء للأماكن الراقية، حيث تطلّ أربعة صفوف من المنازل الحجرية الكئيبة

ذات الطابقين على مساحة فسيحة صغيرة تنمو فيها مروج من الأعشاب القبيحة ومجموعات قليلة من أشجار الغار الباهتة التي تقاوم بضراوة المناخ غير الملائم والمشبَّع بالدخان، في حين أرشدتنا لافتة من ثلاث كرات ذهبية ولوح بني مكتوب عليه بحروف بيضاء «جابز ويلسون» موجودة على بيت في الزاوية إلى المكان الذي يزاول فيه عميلنا ذو الشعر الأحمر عمله.

توقّف شيرلوك هولمز أمامه ورأسه مائل إلى أحد الجوانب وأخذ يتفحصه كله وعيناه تلمعان بشدّة بين جفونه المتغضنة، وبعدها سار ببطء إلى أعلى الشارع، ثم عاد ثانية إلى الزاوية وهو ما يزال ينظر إلى المنازل بحدّة، وأخيراً عاد إلى محل سمسار الرهانات. وبعد أن دقّ بعصاه على الرصيف مرتين أو ثلاثاً ذهب إلى الباب وطرقه، ففتحه في الحال شاب حليق لامع المظهر وأذن له بالدخول.

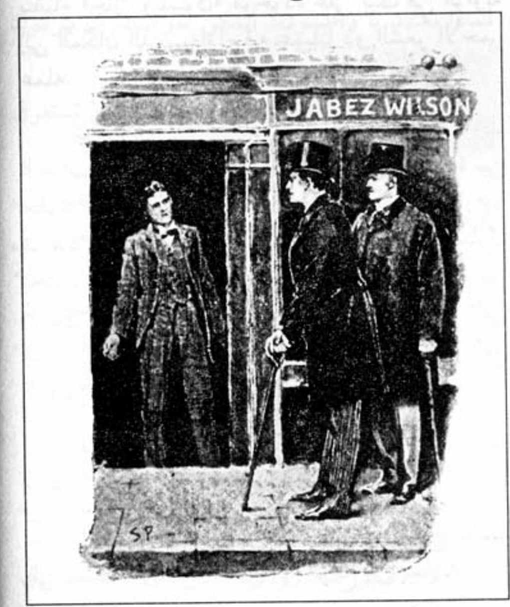
قال هولمز: شكراً لك. كنت أودّ أن أسأل كيف يمكن الذهاب من هنا إلى شارع ستراند.

أجاب المساعد بسرعة: ادخل من الشارع الثالث إلى يمينك، وبعدها ادخل إلى الرابع إلى يسارك.

ثم أغلق الباب، فعلّق هولمز قائلاً بينما كنا

نبتعد: شخص ذكي. إنه -طبقاً لحكمي- رابع أذكى رجل في لندن، وقد أتجرّأ وأقول إنني غير متأكد من أنه قد يكون الأحقّ بالمركز الثالث، فأنا أعرف عنه من قبل.

قلت: هذا واضح، فمساعد السيد ويلسون له



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

ضلع كبير في لغز جماعة ذوي الشعر الأحمر، وأنا متأكد من أنك سألت عن الطريق فقط حتى تراه.

- ليس هو.

- ماذا إذن؟

- ركبتَي بنطاله.

- وماذا رأيت؟

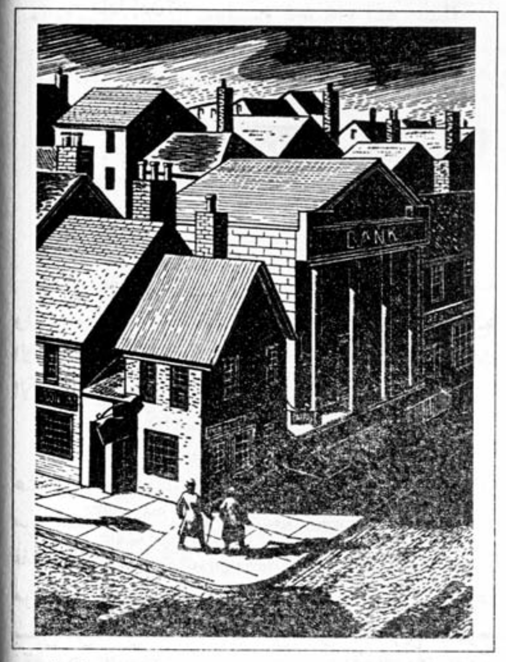
- رأيت ما توقعت أن أراه.

- ولماذا طرقت على الرصيف؟

- أيها الدكتور العزيز، هذا وقت الملاحظة وليس وقت الكلام، فنحن الآن جاسوسان في بلاد الأعداء. نحن نعرف شيئاً عن ميدان كوبورغ، فدعنا الآن نستكشف الأجزاء التي تقع خلفه.

كان الشارع الذي وجدنا أنفسنا فيه عندما انعطفنا عند زاوية ميدان كوبورغ المنعزل على النقيض تماماً من الميدان مثل اختلاف وجه الصورة عن ظهرها؛ فقد كان أحد الطرق الرئيسية التي تنقل حركة المرور من المدينة إلى الغرب والشمال. كان الطريق مسدوداً بسيل من العربات المتدفقة في تيّار متجه إلى الخارج وآخر إلى الداخل، في حين اكتسى ممرّ المشاة بحشد

هائل من المشاة المسرعين. كان من الصعب حين نظرنا إلى هذه المتاجر الراقية ومباني العمل المهيبة أن نستوعب أنها تقابل على الجانب الآخر ذلك الميدان الراكد المضمحل الذي تركناه للتوّ.



رسم جوزف كامانا ١٩٤٧ Joseph Camana 1947

قال هولمز وهو يقف عند الزاوية وينظر إلى صف المباني: لننظر جيداً، فأنا أرغب في تذكّر ترتيب المنازل الموجودة هنا، فمن هواياتي أن أعرف لندن جيّداً. ها هو مورتيمر بائع التبغ، ومتجر الجرائد الصغير، ثم فرع لبنك «المدينة والضواحي»، وبعده المطعم النباتي ومستودع ماكفيرلين لبناء العربات، وهذا يقودنا إلى مجمع الأبنية التالي مباشرة، ولهذا فقد حان الوقت لبعض التسلية. لنتناول شطيرتين وكوبين من القهوة ثم ننطلق إلى أرض الكمان حيث تكمن العذوبة والرقّة والانسجام، وحيث لا يوجَد عملاء من ذوي الشعر الأحمر يضايقوننا بألغازهم.

* * *

كان صديقي موسيقياً متحمساً، حيث لم يكُن عازفاً قديراً جداً وحسب بل كان أيضاً مؤلّفاً موسيقياً لا يُستهان به، لهذا فقد جلس طوال بعد الظهر في المقعد الأمامي للمسرح تغمره السعادة القصوى وهو يلوّح بأصابعه الطويلة النحيلة في تناغم مع الموسيقى، في حين كان وجهه مبتسماً بلطف وعيناه حالمتين على خلاف وجه وعينَي هولمز الذي يسعى طوال الوقت خلف المجرمين؛ هولمز القاسي الحادّ الحواس والمحقق الجنائي المتأهب دائماً إن كان من الممكن فهم ذلك. وفي شخصيته الغريبة تفرض طبيعة

هولمز المزدوجة نفسَها بالتناوب، فدِقّته المتناهية وذكاؤه يمثّلان -كما اعتقدت دائماً- ردّ فعل مضادّاً لمزاجه الشاعري ونزعته التأملية اللذين يسيطران عليه من حين إلى آخر، حيث ينقله هذا التقلّب في طبيعته من حالة الكسل الشديد إلى حالة من النشاط المستبدّ.

Sydney Paget 1891 رسم سدني باجيت ١٨٩١

وكما أعرف جيداً فهو لا يكون مَهيباً بحق إلا عندما يظل لأيام متصلة مسترخياً على كرسيه المريح غارقاً وسط أعماله المرتجَلة، وبعدها تتملكه فجأة رغبة في المطاردة وترتفع قدراته التحليلية الرائعة إلى مستوى التبصر حتى ينظر إليه الناس الذين لا يعرفون أساليبه بتشكك كما لو كان يملك من القدرات ما لا يملكه أي إنسان! ولذلك فعندما رأيته بعد ظهر ذلك اليوم وهو غارق في الموسيقى في قاعة سينت جيمس شعرت أن في انتظار من يسعى وراءهم وقتاً عصيباً.

عندما خرجنا قال هولمز: لا بدّ أنك تودّ الذهاب إلى المنزل يا دكتور.

- أجل، سيكون هذا جيداً.

- وأنا سأقوم ببعض الأعمال التي قد تستغرق عدة ساعات، فقضيّة ميدان كوبورغ خطيرة.

- ولماذا هي خطيرة؟

- توجد نية للقيام بجريمة كبيرة، وعندي من الأسباب القويّة ما يدفعني إلى الاعتقاد بأننا سنصل في الوقت المناسب لمنعها.

- في أي وقت؟

- الساعة العاشرة ستكون مناسبة تماماً.

- سأكون في شارع بيكر في العاشرة.

- جيد جداً، وأريد أن أقول لك -يا دكتور- إنه قد يكون في الأمر بعض الخطر، ولذلك أرجو أن تتكرم وتُحضِر المسدس في جيبك.

ثم لوّح بيديه واستدار على عقبيه واختفى وسط الزحام.

* * *

أنا واثق من أنني لست أكثر غباء من أقراني، ولكن دائماً ما ينتابني الحزن بسبب إحساسي بغبائي في تعاملي مع هولمز، فها أنا قد سمعت ما سمعه ورأيت ما رآه، وبالرغم من ذلك فقد كان واضحاً من كلماته أنه لم يعرف فقط ما قد حدث، ولكنه قد عرف أيضاً ما كان على وشك الحدوث! في حين كانت القضيّة كلها ما زالت بالنسبة إليّ محيّرة وغريبة.

وقد فكرت في الأمر كله وأنا متجه إلى منزلي، بدءاً بالقصّة الغريبة لناسخ الموسوعة الأحمر الشعر ووصولاً إلى زيارة ميدان كوبورغ والكلمات المنذرة بالسوء التي قالها هولمز قبل أن يتركني.

ما هذه الزيارة الاستكشافية؟ ولماذا يجب عليّ الذهاب مسلّحاً؟ وأين سنذهب؟ وماذا سنفعل؟

شعرت من تلميح هولمز أن مساعد سمسار الرهانات ذا الوجه الحليق هو رجل مرعب، رجل قد يقوم بلعبة خطيرة. حاولت فكّ رموزها ولكنني استسلمت في يأس ونحّيت الأمر جانباً انتظاراً لأن يحمل الليل شرحاً لكل هذه الأسئلة.

* * *

كانت الساعة التاسعة والنصف حين غادرت المنزل وعبرت المتنزّه ثم شارع أكسفورد، حتى وصلت إلى شارع بيكر فوجدت عربتين تنتظران أمام الباب، وحين دخلت سمعت أصواتاً تصدر من الطابق العلوي، وعندما دخلت إلى غرفة هولمز وجدته منهمكاً في محادثة مفعَمة بالحيوية مع رجلين، وقد عرفت أحدهما حيث كان بيتر جونز وكيل الشرطة الرسمية، في حين كان الآخر طويلاً نحيلاً له وجه كئيب ويرتدي قبّعة رسمية ومعطفاً شديد الأناقة يصل حتى الركبة.

قال هولمز وهو يغلق أزرار معطفه الصوفي القصير ذي الصدر المضاعف ويأخذ سوط الصيد من فوق الرف: حسناً، لقد اكتمل جمعنا. أعتقد أنك تعرف السيد جونز يا واطسون من الشرطة البريطانية؟ ودعني أعرّفك بالسيد مِريوِذَرْ الذي سيكون رفيقنا الليلة في مغامرتنا.

قال جونز بطريقته المتعالية: سنقوم بالمطاردة أزواجاً هذه المرة أيضاً معاً يا دكتور، فصديقنا هنا -كما ترى- ماهر في البدء بالمطاردة، وكل ما يحتاجه هو كلب عجوز ليساعده في القبض على الفريسة.

علّق السيد مريوِذر بكآبة: أرجو أن لا نجد في نهاية مطاردتنا قطة برية.

قال رجل التحرّي بتعالٍ: يمكنك أن تثق بالسيد هولمز يا سيدي، فله أساليبه الخاصّة التي أرجو أن لا يمانع في قولي إنها تميل إلى النظرية، وإن كانت رائعة، ولكنه يملك غريزة المحقق، وليس من المبالَغ فيه أن نقول إنه قد قام مرة أو مرتين بالتفوق تقريباً على الشرطة الرسمية مثلما حدث في جريمة قتل سولتو وكنز الأغرا.

قال الغريب باحترام: لو أن هذا رأيك يا سيد جونز فلا بأس إذن، وإن كنت أعترف بأنني سأفتقد دورة لعب الورق، فهذه هي ليلة السبت الأولى التي لا ألعب فيها الورق منذ سبعة وعشرين عاماً.

قال شيرلوك هولمز: أظن أنك ستجد أن رهانك الليلة سيكون أعلى قيمة من أي رهان قمت به من قبل، وأن اللعب سيكون أكثر إثارة؛ فبالنسبة إليك سيكون الرهان بما يقرب من ثلاثين ألف جنيه. وأما

بالنسبة إليك يا جونز، فسوف يكون على شخص تمنّيتَ القبض عليه.

- جون كلاي القاتل واللص والمخرّب والمزوّر. إنه شاب صغير يا سيد مريوذر، ولكنه زعيم في مهنته، وأنا أفضّل القبض عليه أكثر من أي مجرم آخر في لندن، فجون كلاي رجل جدير بالملاحظة حيث كان جده دوقاً ملكياً وذهب هو بنفسه إلى كلية إيتون وأكسفورد، كما أن عقله في مهارة أصابعه، وبالرغم من أننا نرى آثاره في كل اتجاه إلا أننا لا نعرف أبداً أين نجد الرجل نفسه، فقد يسطو على أحد البيوت في إسكتلندا في أسبوع ثم يجمع المال لبناء دار أيتام في كورنُوول في الأسبوع الذي يليه! لقد سعيت في أثره لسنوات ولم أستطع رؤيته حتى الآن.

قال هولمز: أتمنّى أن يحالفني الحظ وأعرّف أحدكما بالآخر الليلة. لقد خضت مع السيد كلاي جولة أو اثنتين أيضاً، وأنا أتفق معك على أنه زعيم في مهنته. لقد تجاوزت الساعةُ العاشرةَ على أية حال وحان وقت البدء بالعمل، فلو تكرمتم بركوب العربة الأولى فسأركب أنا وواطسون في العربة الثانية.

* * *

لم يكُن شيرلوك هولمز ميّالاً إلى الحديث خلال

الرحلة الطويلة، بل مال إلى الخلف في عربة الأجرة وهو يدندن بالألحان التي سمعها بعد الظهر، وسارت العربة وهي تقرقع عبر متاهة لانهائية من الشوارع المضاءة حتى وصلنا إلى شارع فارنغتون.

علّق صديقي قائلاً: لقد اقتربنا الآن، إن السيد مِريوِذَرْ مدير لأحد البنوك ومهتمّ شخصياً بالقضية، كما رأيت أن نصطحب جونز أيضاً. إنه ليس شخصاً سيّئاً، وإن كان غبياً تماماً في مهنته، ولكن لديه فضيلة إيجابية واحدة، فهو شجاع ككلب الصيد وعنيد كسرطان البحر حين ينشب مخالبه في أحد الأشخاص. ها قد وصلنا، إنهما بانتظارنا.

وصلنا إلى نفس الطريق المزدحم الذي كنا فيه بالأمس، فصرفنا عربتَي الأجرة وتبعنا إرشادات السيد مريوذَرْ حيث سرنا إلى الأسفل عبر ممر ضيق ثم دخلنا من باب جانبي قام بفتحه لنا، وفي الداخل كان رواق صغير في نهايته بوّابة حديدية هائلة جداً فتحها أيضاً فقادتنا إلى درجات حجرية ملتوية تنتهي عند بوابة هائلة أخرى، حيث توقف السيد مريوذَرْ ليشعل مصباحاً، وبعد ذلك قادنا عبر ممرّ معتم تفوح منه رائحة الأرض بعد أن فتح بوابة ثالثة، حتى وصلنا إلى قبو أو سرداب واسع فيه أكوام من الصناديق والأقفاص الضخمة.

رفع هولمز المصباح عالياً ونظر حوله ثم قال: لا

يمكن اختراقكم من الأعلى بسهولة.

قال السيد مِريوِذَرْ وهو يدقّ بعصاه على البلاط الذي يغطّي الأرضية: ولا من الأسفل أيضاً.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

ثم أضاف: يا للعجب... يا إلهي! إنه يُصدِر صوتاً أجوف.

قال هولمز بجِدّ: يجب حقاً أن أطلب منك التزام الهدوء؛ لقد عرّضت الآن نجاح مهمّتنا إلى الخطر. أرجو منك أن تتكرم وتجلس على أحد الصناديق ولا تتدخل.

جلس السيد مِريوِذَرْ المهيب على أحد الصناديق وعلى وجهه علامات الضيق الشديد، في حين نزل هولمز على ركبتيه إلى الأرض وبدأ يفحص الشقوق بين الأحجار بدقّة مستخدِماً المصباح والعدسة المكبّرة. لم يحتَج إلا إلى ثوانٍ قليلة ثم هبّ واقفاً على قدميه ثانية والعدسة في جيبه وقال: أمامنا ساعة على الأقل، فلن يستطيعوا القيام بأي خطوة حتى ينام سمسار الرهانات الطيب في سريره بهدوء، وبعدها لن يضيّعوا أي دقيقة لأنهم كلّما أسرعوا في إنهاء عملهم أُتيحَ لهم وقت أطول للهرب. أمّا في الوقت الحاضر فنحن يا دكتور (كما لا بدّ أنك قد تكهنت) في قبو فرع المدينة لأحد بنوك لندن الرئيسية، والسيد مريوذَرْ هو مدير فروع البنك كلها، وسوف يشرح لك الأسباب التي تجعل المجرمين الأكثر جرأة في لندن يهتمّون بهذا القبو في الوقت الحالي.

همس المدير: إنه ذهبنا الفرنسي، لقد تلقّينا

تحذيرات كثيرة تقول بأن من المحتمَل أن يحاول أحدٌ سرقته.

- ذهبكم الفرنسي؟!

- نعم، لقد واتتنا الفرصة منذ بضعة شهور مضت لكي نعزّز مواردنا فاقترضنا لهذا الغرض ثلاثين ألف قطعة ذهبية من بنك فرنسا، وقد أصبح من المعروف أننا لم نستخدم المال بعد وأنه ما يزال موجوداً في قبونا، فالصندوق الذي أجلس عليه يحتوي على ألفي قطعة ذهبية معبّأة بين طبقات من رقائق القصدير. إن مخزوننا من السبائك الذهبية يفوق بكثير في الوقت الحالي ما هو مألوف في مكتب فرع واحد، وقد تَخوّف المديرون من هذا الأمر.

أضاف هولمز قائلاً: وكان لهذا الخوف مبرّراته القوية. والآن علينا تنظيم خطتنا البسيطة حيث أتوقع أن تصل الأمور إلى ذروتها خلال ساعة، وفي هذه الأثناء يجب علينا أن نضع الغطاء على المصباح الداكن يا سيد مِريوِذَرْ.

- ونجلس في الظلام.

- أخشى ذلك، كنت قد أحضرت مجموعة من ورق اللعب وفكّرت أن بإمكاننا تكوين مجموعة حتى نتمكن من لعب دورة الورق التي تعوّدتَ عليها

رغم كل شيء، ولكنني أرى أن استعدادات العدوّ قد وصلت مرحلة بعيدة تجعل من غير الممكن أن نخاطر بوجود إضاءة. وقبل كل شيء يجب أن نختار مواقعنا، فنحن نتعامل مع رجال يتمتعون بالجرأة الشديدة، وبالرغم من أننا سنأخذهم على حين غرّة إلا أنهم قد يؤذوننا ما لم نحترس. سأقف خلف هذا الصندوق وعليكم أن تختبئوا خلف تلك المجموعة، وبعد ذلك حين أفاجئهم بإشعال الضوء قوموا بالهجوم عليهم على الفور، ولا تتردد في إطلاق النار عليهم يا واطسون لو بدؤوا بإطلاق النار.

وضعت مسدّسي مرفوعاً على الصندوق الخشبي الذي كنت أقبع خلفه في حين أغلق هولمز غطاء المصباح وتركنا في ظلام دامس، ظلام لم أختبره من قبل، وبقيَت رائحة المعدن لتطمئننا بأن الضوء لم ينطفئ وجاهز للإنارة في أي لحظة.

همس هولمز قائلاً: ليس لديهم إلا مهرب واحد، وهو العودة عبر المنزل في ميدان كوبورغ. أرجو أن تكون قد نفّذت ما طلبته منك يا جونز.

- يوجَد عدد من رجال الشرطة ينتظرون عند الباب الأمامي للمنزل.

- إذن فقد أغلقنا عليهم كل المنافذ، ويجب علينا أن نجلس الآن وننتظر.

بدا أن الوقت يمرّ ببطء شديد، وقد ظهر فيما بعد أن تلك المدّة لم تتعدَّ الساعة وربع الساعة، إلاّ أنني أحسست وكأن الليل قد أوشك على نهايته وأن الفجر أصبح وشيكاً. كانت أطرافي متعَبة ومتشنجة لأنني خشيت من تغيير وضعي، وبالرغم من ذلك فقد كانت أعصابي مشدودة لأقصى حدود التوتر، وكان سمعي مرهَفاً لدرجة أنني لم أسمع فقط أنفاس مرافقيّ بل استطعت تمييز صوت التنفس الأكثر تثاقلاً وانخفاضاً لجونز الضخم من التنفس الضعيف المتقطع لمدير البنك. كنت أستطيع رؤية الأرضية من موقعي حين أنظر من فوق الصندوق، وفجأة لمحت شعاع ضوء! في البداية لم تكُن إلاّ شرارة لامعة على حجر الأرضية، ثم استطالت لتصبح خطاً أصفر، وبعد ذلك ودون أي تحذير أو صوت انفتح شقّ وظهرت يد! يد بيضاء أخذت تتحسس وسط منطقة الضوء الصغيرة، وقد ظلّت اليد بأصابعها المتفحصة بارزة خارج الأرضية لدقيقة أو اثنتين، وبعد ذلك سُحبت فجأة كما ظهرت، وساد الظلام ثانية فيما عدا الشرارة البرّاقة التي حدّدت الشقّ الموجود بين الأحجار. إلاّ أن اختفاءها لم يدُم إلاّ لحظات، فقد سمعنا صوت

تحطّم وانسلاخ، ثم انقلب أحد الأحجار على جانبه ليترك فتحة مربّعة واسعة تسلّل خلالها ضوء مصباح، ثم أخذ شخص له وجه فتيّ متميز يسترق النظر من فوق الحافّة وينظر حوله بحماسة، وبعد ذلك وضع يديه على جانبَي الفتحة ثم أخذ يسحب نفسه حتى ظهرت كتفاه، ثم خصره، وأخيراً وضع إحدى ركبتيه على الحافّة، وبعد لحظة كان واقفاً على جانب الحفرة يسحب رفيقاً له رشيقاً قصيراً مثله وله وجه شاحب وشعر أحمر للغاية.

قال هامساً: المكان خالٍ تماماً. هل معك العدّة والحقائب؟ يا إلهي! اقفز... آرتشي، اقفز وسأحاول أن أتبعك.

كان شيرلوك هولمز قد هبّ واقفاً وأمسك بالدخيل من ياقته، أما الآخر فقد غاص أسفل الحفرة، ثم سمعت صوت قماش يتمزق حين قبض جونز على طرف ملابسه. لمع الضوء على أنبوبة مسدّس، ولكن سوط هولمز انهال على رسغ الرجل فسقط المسدّس على الأرض الحجرية مقرقعاً.

قال هولمز بهدوء: لا فائدة من ذلك يا جون كلاي؛ ليست لديك فرصة على الإطلاق.

أجاب الآخر ببرود شديد: هذا ما أراه، وإن

كنت أتخيّل أن زميلي بخير بالرغم من أنني أرى أنكم حصلتم على ذيل معطفه.

قال هولمز: ينتظره ثلاثة رجال عند الباب.

- حقاً؟! يبدو أنك قد قمت بكل شيء على



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

أكمل وجه. يجب علي أن أهنئك.

أجابه هولمز: وأنا أيضاً أهنئك، حيث كانت فكرة جماعة ذوي الشعر الأحمر جديدة جداً وفعّالة.

قال جونز: سترى زميلك ثانية في الحال، فهو أسرع مني في نزول الحفر. انتظر حتى أعدل قبّعتي.

علّق سجيننا قائلاً حين قرقعت الأطواق المعدنية على رسغيه: أرجو أن لا تضع يديك القذرتين عليّ، قد لا تكونان مدركَين أن الدم النبيل يسري في عروقي، ولهذا أرجو أن تتكرم وتخاطبني دائماً بلقب «سيدي» وبكلمة «أرجوك».

حملق جونز إليه بذهول، وضحك ضحكة مكتومة ثم قال: حسناً، أرجوك يا سيدي أن تصعد إلى الدور العلوي حيث تستطيع أن تستقلّ عربة أجرة لتحمل فخامتك إلى مركز الشرطة؟

قال جون كلاي بجدية: هذا أفضل.

ثم انحنى لنا جميعاً انحناءة سريعة وسار في حراسة الشرطي بهدوء.

قال مدير البنك ونحن نسير خلفه خارجين من القبو: حقاً يا سيد هولمز، لا أدري كيف يمكن

للبنك أن يشكرك أو يردّ جميلك، فلا شك في أنك قد اكتشفت وأحبطت بطريقة مُحكَمة إحدى أكثر محاولات سرقة البنوك التي أعرفها جرأة وإصراراً.

قال هولمز: لقد كان لي حساب خاص لأصفّيه مع السيد جون كلاي، وقد أنفقت القليل من المصاريف على هذا الأمر وأتوقع من البنك أن يقوم بسدادها، وسوى ذلك فإن التجربة الفريدة التي حظيت بها تُعتبر مكافأة شخصية، بالإضافة إلى سماعي لحكاية جماعة ذوي الشعر الأحمر المثيرة للاهتمام.

❋ ❋ ❋

شرح لي هولمز في ساعات الصباح الأولى ونحن جالسان لاحتساء القهوة في منزلنا بشارع بيكر فقال: أترى يا واطسون؟ كان من الواضح تماماً منذ البداية أن الغرض الوحيد الممكن من إعلان الجماعة الغريب ومن وظيفة نسخ الموسوعة هو إبعاد سمسار الرهانات ذي التفكير المحدود من الطريق لعدّة ساعات كل يوم، وإن كانت الطريقة مثيرة للفضول في الحقيقة حتى إن من الصعب اقتراح طريقة أفضل، ولا بدّ أنها خطرت على بال العبقري جون كلاي بسبب لون شعر شريكه. وهكذا كان مبلغ الجنيهات الأربعة حافزاً لجذب السمسار، كما أنه لم يكُن إلاّ مبلغاً تافهاً بالنظر إلى ما يسعون خلفه من آلاف الجنيهات. وهكذا

فقد وضعوا الإعلان، في حين قام أحد المحتالين بالحصول على مكتب مؤقت وقام الآخر بحثّ الرجل ليتقدم إلى الوظيفة المطلوبة، فتمكّنا معاً من ضمان غيابه كل صباح. وقد اتّضح لي منذ سمعت بأن المساعد قد قبل بالعمل مقابل نصف الأجر أن لديه دافعاً قوياً للحصول على الوظيفة.

- ولكن كيف تمكنت من تخمين دافعه لذلك؟

قال هولمز: لقد كان عمل الرجل صغيراً وليس في المنزل شيء يفسّر القيام بمثل هذه التحضيرات المتقَنة ومثل هذا الإنفاق، فلا بدّ أن يكون الأمر خارج المنزل، ولكن ماذا يمكن أن يكون؟ فكّرت في شغف المساعد بالتصوير الضوئي وعادته بالاختفاء في القبو... القبو! وهنا كان حلّ هذا اللغز المحيّر. بعد ذلك قمت بالتحري عن ذلك المساعد الغامض ووجدت أنني أتعامل مع واحد من أكثر المجرمين برودة وجرأة في لندن.

كان يقوم بشيء في القبو، شيء يأخذ ساعات طويلة في اليوم لأسابيع عديدة متصلة، فماذا يمكن أن يكون مرة أخرى؟ لم أستطع التفكير بشيء سوى أنه يقوم بحفر نفق ليصل إلى مبنى آخر، كان هذا آخر ما وصلت إليه حين ذهبنا لزيارة موقع الحدث. وقد أثرت دهشتك عندما قمت بالدقّ على أرضية الرصيف

بعصاي، وكنت وقتها أتحقّق ما إذا كان القبو يمتدّ أمام المنزل أم خلفه، فاكتشفت أنه لا يمتدّ من الأمام، ثم قمت بدقّ الجرس، وقد فتحه المساعد كما تمنّيت. وبالرغم من وجود بعض المناوشات السابقة بيننا إلاّ أننا لم نتقابل وجهاً لوجه من قبل، كما أنني بالكاد نظرت إلى وجهه، فقد كنت أرغب في رؤية ركبتَي بنطاله، ولا بدّ أنك أنت نفسك قد لاحظت كم كانتا باليتين مجعَّدتين وملطختين بالبقع. كانتا دليلاً واضحاً على ساعات من الحفر، ولكن كانت النقطة الوحيدة الباقية هي إلى أي مكان كانا يحفران؟ وعندما أسرعت حول المنعطف ورأيت فرع البنك محاذياً لمبنى صديقنا عرفت أنني قد حللت مشكلتي. وهكذا فعندما عدتَ إلى منزلك بعد الحفلة الموسيقية قمتُ بزيارة إدارة سكتلنديارد ورئيس إدارة البنك موضّحاً النتيجة التي رأيتها قبل قليل.

سألت: وكيف عرفت أنهما سيقومان بمحاولة السرقة اليوم؟

- حسناً، عندما قاما بإغلاق مقرّ الجماعة كان في ذلك إشارة إلى أنهما لم يعودا يكترثان بوجود السيد جابز ويلسون، بمعنى آخر أنهما قد انتهيا من النفق، وكان من الضروري أن يقوما باستخدامه سريعاً خوفاً من أن يتمّ اكتشافه أو أن يتمّ نقل الذهب، وكان يوم

السبت أفضل من أي يوم آخر حيث سيتيح لهما يومين للهرب.. لكل هذه الأسباب توقعت قدومهما الليلة.

صحت بإعجاب صادق: لقد قمت بتحليل الأمر بشكل ممتاز، وبالرغم من أنها سلسلة طويلة من الأحداث إلاّ أن كل حلقة قد وُضِعت في مكانها الصحيح.

أجابني وهو يتثاءب: لقد أنقذَتني من الملل، ولكن يا للخسارة! لقد بدأت أشعر به يتملكني من جديد. أقضي حياتي في مجهود متواصل لكي أهرب من روتين الحياة، وهذه القضايا الصغيرة تساعدني على ذلك.

قلت: كما أنك تقوم بالكثير من الأعمال الجيّدة للبشرية.

هزّ كتفيه وقال: حسناً، قد يكون في هذا الأمر بعض الفائدة رغم كل شيء، كما كتب غوستاف فلوبرت ذات يوم: «الإنسان لا يساوي شيئاً، أمّا الأعمال فتساوي كل شيء».

* * *

-تمّت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا
(٢) قضية هوية
(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
(٤) لغز وادي بوسكومب
(٥) بذور البرتقال الخمس
(٦) ذو الشّفة الملتوية
(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء
(٨) لغز العصابة الرقطاء
(٩) مغامرة إبهام المهندس
(١٠) مغامرة النبيل الأعزب
(١١) مغامرة تاج الزمرّد
(١٢) منزل الأشجار النحاسية